خطبة حفني بك ناصف

(رئيس نادي دار العلوم في مسألة التعريب)

أكثر القائلون بتطبيق «سياسة الباب المفتوح» على اللغة العربية من ذكر جمود أمتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين أمام الامم الغربية ونعوا علينا تحرجنا قبول الدخيل في لغتنا ورمونا « بالرجوع الى الوراء والنفور من كل جديد والوقوف عند حد ما أتاه الزمان وخالفة سنة اللغات الحية صاحبة الحركة الدائمة التي قدر أهلها أن ينتفعوا بكل ما خلقه الله » الى آخر ما أتوا به من القضايا الخطابية بقصد التأثير في أفكار السامعين حتى تخيلوا ان الكلم الاعجمية واجبة الاستعمال في اللغة العربية حرصا على الزمن أن يضيع في انتقاء ألفاظ عربية تسد مسدها وان قواعد الاقتصاد السياسي تقضي بصرفه في اختراع آلة حربية أو معمل صناعي أو مصرف مالي ولقد كدت من شدة التأثير أمسك عن الكلام خيفة ان أضيع عليكم ساعة يمكنكم فيها اختراع بندقية جديدة أو آلة للطيران أو علاج للسرطان

مسكينة الامة المستضعفة لا تدري من أين تؤتى ولا تعرف لتأخرها علة فتذهب مع كل ذاهب وتمشي وراء كل حاطب

ظننا النيل سبب رخاوتنا فدللنا عنه الى الآبار فامتطيناه وظننا الازياء

الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبد لنابها أزياء ضيقة فاعدونا. وحسبنا اقتعاد السيارات والدراجات بوصلنا الى المدنية فاقتعدناها وما استفدناه وزعمنا ملاهي التمثيل، أقرب سبيل، فأبعدتنا، وعدنا النفازج (البالو) معارج فاعرجنا، وغيرنا العمائم بالقلانس والدور بالقصور وظهور الصافنات بيطون العربات فما أخرجنا كل ذلك عما نحن فيه من الاستضعاف ولا سبانا الى مراقي الالمان والانكليز واليابان

ان لارتفاع الامم وانحطاطها أسبابا خاض فيها الحكماء وأفاض في بيانها العلماء وليس المقام الآن مقام ذكرها وان المسألة التي نحن بصددها مسألة نقلية يرجع فيها الى كتب اللغة والادب وليس لاحد ان يأخذ فيها بالهوى أو يسترسل مع الوجدان أو يقتصر فيها على مجرد الاستقباح والاستحسان فكما لايجوز في التاريخ ان تنكروا غلبة اليابان للروس محتجين بان الصغير لايغلب الكبير لايجوز في العربية أن تنصبوا الفاعل وتقدموا خبران على اسمها احتجاجا بأن المعنى لا يتغير ولا ان تقولوا «ما الفرق بيننا وبين العرب الاولى حتى جاز لهم وضع ألفاظ مقتضبة وتعريب كلمات أعجمية والشذوذ عن القياس وامتنع علينا أليسوا رجالا ونحن رجال؟»

ليس لاحد ان يقول ذلك الا اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضي بان يكون طليقا لايتقيد بشيء. المسألة منصوصة في الاسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولا يقصر شيئاً على السماع ويستريح من عناء الدروس فليصنع ماشا فليس عندنا مايرغمه على اتباع الجماعة ولا فائدة في الجدال معه واذا شاء ان يتبع المنصوص فها هو بيانه.

اتفق العلماء على أن اللغة العربية كانت لسان عاد وثمود وأميم وعميل

وطسم وجديس وعليق وجرهم ووبار من أولاد ارم بن سام

وأول تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى اولاده على لغته في انحاء اليمن كلها ثم تفرق جماعة منهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة

ولما اصهر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام الى قبيلة جرهم أدخل تنقيحا ثانيا في اللغة وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وخزاعة وقيس وضبة

والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج

والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصرين البصرة والكوفة (نقلة اللغة في عصر الامويين والعباسيين) فقد قصروا اختيارهم على ست قبائل من صميم العرب لم تختلط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طي ولم يأخذوا عن لخم وجذام لمخالطتهم القبط اهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان واياد لمخالطتهم اهل الشام والروم وأكثرهم نصارى يقرءون بالسريانية ، ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديين والفرس ، ولا عن اهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديين ولا عن بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجار اليمن عندهم

ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللغة لفساد نقلها بالاختلاط

وعدوا لغة قريش أفصح اللغات العربية لانها خالية عن عنعنة تميم وهي ابدال الهمزة عينا نحو عنك وعنك أي أنت وانك ، وعن تلتلة بهراء وهي كسر أول المضارع نحو تِلْعب وتِلْهو ، وعن كسكسة ربيعة ومضر وهي إلحاق سين بعد كاف المخاطب وأيتكَسْ ، وعن كشكشة هوازن وهي إلحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو وأينكشْ وعن فحفحة هذيل وهي قلب الحاء عينا نحو عتى أي حتى ، وعن وكم ربيعة وهي كسر كاف المخاطب بعد الياء الساكنة أو الكسرة نحو عليكِم وبكِم ، وعن وَهْم بني كلب وهي كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهِم وبينهِم وعن جمجمة قضاعة وهي قلب الياء الاخيرة جيما نحو الساعج يدعج أي الساعي يدعي وعن وَتَم أهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو الناتْ أي الناس ، وعن الاستنطاء في لغة سعد والازد وقيس وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو أنطى أي أعطى ، وعن شنشنة اليمن وهي قلب الكاف شينا نحو ليش اللهم ليش ، وعن طمطمانية الشعر وعمان وهي حذف الالف في نحو مشاء الله أي ماشاء الله ، وعن طمطمانية حمير وهي جعل أل « ام » نحو ، وعن طاب امهواء أي الهواء ، وغمغمة قضاعة وهي اخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

ولم ينظر نقله اللغة الى لغة كل قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ التي يتكلم بها كل القبائل التي حولوا على الاخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللغة الاعجمية لا يخطئ المتكلم الا اذا خرج عنها كلها فلفظ المدية لغة دوس (بطن من الازد) ولفظ السكين لغة قريش فنقل الائمة اللفظين

وأباحوا لكل انسان أن يتكلم بأيهما شاء ولو لم يوجد في العرب من تكلم بهما معا ومن هنا جاء الترادف في اللغة والاشتراك اللفظي ولو جمعوا لغة كل حي من العرب على حدتها لتكرر العمل وطال الزمن

ثم نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على ألسنة العرب عدوه غريبا ووحشيا بعد استعماله مخلا بالفصاحة ولو كان معروفا عند المخاطبين

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلق بأحوال أواخر الكلام وقواعد تتعلق بباقي أحوالها وسموها علم النحو والصرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيودا واستثناآت حتى يكون الاستعمال الكثير مضبوطا بقوانين تحتذى عند القياس وما شذ عن ذلك جعلوه سماعيا يقبل من العربي ولا يقبل من المولد

وكانوا شديدي الحرص على بيان السماعي والقياسي فاذا لم يكن اللفظ (مادة أو هيئة) قد سمع من العرب منعوه بتاتا وشنعوا على مستعمله

ولاجل أن يعرف السامع مقدار عنايتهم بالمسموع من العرب ومقدار الانحطاط الذي كان يلحق بمن يخطئ منهم أروي لك قصة وفود سيبويه على يحيى بن خالد البرمكي ببغداد فقد عقد يحيى مجلسا جمع فيه بين سيبويه رئيس نحاة البصرة وبين علي الكسائي رئيس نحاة الكوفة فقال له الكسائي: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه سل أنت فسأله الكسائي عن قول العرب «قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي» أيجوز «فاذا هو اياها» فقال سيبويه لا يجوز النصب فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبه فقال يحيى لقد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما فقال

له الكسائي هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيحضرون ويسألون فقال يحيى وجعفر أنصفت وامرا باحضار أعرابي من أهل البادية وسألوه فقال «القول قول الكسائي» فقال سيبويه ليحيى «مره أن ينطق بذلك فان لسانه لا يطاوعه» فاكتفى المجلس بحكم الاعرابي وخجل سيبويه وسافر بعد ذلك الى فارس فأقام بها حتى مات وكانت هذه المسألة سبب علته وكانت وفاته في سنة ١٨٠ وعمره ٣٢ وهكذا كانت عادة علماء البلدين متى اختلفوا في أمر تلمّسوه عند البدو وتسمّعوه منهم

وعرفوا المعرّب بأنه الاسم الاعجمي الذي فاهت به العرب الموثوق بعربيتهم فاذا فاه به غير العربي سمي مولداً وقد تبعهم في ذلك كل من كتب في اللغة كأصحاب الصحاح والقاموس والمحكم والعباب وأجمع العلماء على أن لا يستشهد في اللغة والصرف والنحو الا بكلام العرب ولا يجوز الاستشهاد بكلام المولدين الا في علوم البلاغة

واجازوا استعمال الكلم في غير ماوضعت له متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلي وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموها علاقات وهي

المشابهة نحو فاه الخطيب بالدرر أي الكلمات الحسان

والسببية — نحو رعينا الغيث أي الكلاء

والمسببية — نحو أمطرت السماء نباتا أي ماء

والكلية — نحو «يجعلون أصابعهم في آذانهم

والجزئية — نحو بث الامير العيون أي الجواسيس

والحالية — نحو «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» أي الجنة

والحلية ـ نحو سال الوادي وجرى الميزاب أي ماؤه

واللازمية ـ كاطلاق الحرارة على النار

والملزومية نحو دخلت الشمس من الكوة أي ضوءها

والاطلاق ـ نحو « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » أي لا صلاة كاملة

والتقييد كاطلاق المشفر على شفة الانسان والمشفر للبعير كالشفة للانسان

والعموم ـ كاطلاق الابيض والاسمر على السيف والرمح والدابة على ذات الاربع

والخصوص ـ كاطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو تميم وقريش وربيعة

والبدلية ـ نحو في ملك فلان الف دينار أي متاع يساوي الفا

والمبدلية ـ نحو « أكلت دما ان لم أرعك بضرة » أي أكلت دية

واعتبار ما كان ـ نحو « وآتوا اليتامى أموالهم » أي الذين كانوا يتامى

واعتبار ما يكون ـ نحو « أراني أعصر خمرا » أي عنبا

الدالية ـ نحو فهمت الكتاب أي معناه

والمدلولية ـ نحو « قرأت معناه مشفوعا بتقبيل » أي قرأت لفظه

والمجاورة ـ نحو شربت من الراوية أي المزادة المجاورة للجمل وقد تكون المجاورة في الذكر فقط كما في المشاكلة نحو: اطبخوا لي جبة وقميصا

والآلية ـ نحو « واجعل لي لسان صدق » أي ذكراً حسنا صادقاً

والتعلق ـ كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل أو المفعول كشاهد عدل « وهذا خلق الله »

والشرطية ـ نحو « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم

والمصدرية — نحو «فرجعوا الى أنفسهم» أي آرائهم
والمظهرية — نحو «يد الله فوق أيديهم» أي قدرته
والتضاد — كاطلاق البصير على الاعمى

ومتى اشتهر اللفظ في معناه المجازي صار حقيقة عرفية له حكم الحقيقة الوضعية

وقد صارت اللغة بهذا التنقيح الاخير لغة العرب عامة لا لغة قبيلة بعينها فأي لفظ نطقت به فانت مصيب وأي استعمال جريت عليه فلست بمخطئ ما دمت لم تخرج عن المنقول وأية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذكر توصلك الى تسمية ما لم تسمه العرب فلست مقيداً بلفظ أعجمي ولا بلهجة حي معين وصرت بذلك بعيدا عن الخطأ واسع المجال في النثر والنظم والتقلب في الاساليب الانشائية تصول وتجول وتتهدم وتجد حسبما يسمو اليه استعدادك وتصل اليه درجتك من الاطلاع وتمكنك منه بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكين كما تقول قريش وان تنطق كلمة «حيث» بتسع لغات ولفظ «ياربي» بست لغات وتركيب (بادئ بدء) بثمانية عشر وجهاً وان ترفع الخبر وتنصبه في نحو ما هذا بشراً وان تطلق الاسد على السبع والشجاع والعين على الباصرة والذهب والجاسوس وتصرح وتعمي حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربية كل ما فهمته من اللغات الاخرى

وقد وقع جاسوس عربي في يد العدو فحبسوه وألزموه أن يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وعُددهم غشا وتغريراً فكتب الى الملك كتاباً قال فيه:

« أما بعد فقد أحطت علما بالقوم ، وأصبحت مستريحا من السعي في تعرف احوالهم ، واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالامور والنظر في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة الغالبة باذن الله ، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحتُ فدع ربيك ودع مهلك والسلام »

وسلم الكتاب الى العدو فأرسلوه الى الملك بعدما اطلعوا عليه فتفطن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته ان الجاسوس وقع في الاسر فأصبح مستريحا من السعي وانه رآهم أضعافنا واننا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية « كم من فئة قليلة » ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي وأراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون « كلهم عدوٌّ كبيرُ عدٍّ فتحصن »

على هذا استقرت اللغة العربية وتم إحكامها وحصرت مفرداتها الاصلية وقوانينها وأبيح استعمال مفرداتها في غير ما وضعت له عند الاحتياج بشرط العلاقة والقرينة وانتهت أدوار التنقيح فيها فلم يبق الا استظهارها والعمل بها. وقد اغتبطت الامة العربية بذلك وعكفت على العمل بها قرونا قضت فيها لبانة للعلم والسياسة وتفرغت للفتوح والاستعمار وملأت طباق الارض بالتصانيف في الشرائع والحكمة وكل ما كان على وجه الارض من العلوم فأثارت الخافقين ونشرت المدنية في الدنيا. ولما ضعف أمرهم ورثهم الغربيون في حكمتهم وأخذوها عنهم وأضافوا اليها ما تجدد من الصناعات والفنون ولا يزال الافرنج يدأبون في اقتناء الكتب العربية ويستخرجون منها من الفوائد ما لم يكن في حسباننا ولكل مجتهد نصيب

هذا ما حضرني من النصوص المحتوية عليها كتب العرب، المتضافر عليها من أئمة الأدب، فمن شاء فليؤمن بها ومن شاء فليكفر بها فقد تبين الرشد من الغي

ولما قعدت هم الخالفين وانتشر فساد اللغة مادة وقوانين رأى فريق من الناس أن يكفونا مؤنة التحصيل فهبوا الى فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الالفاظ وطفقوا يحسنون صنيعهم بأقيسة خطابية وجدلية لا تغني من الحق شيئاً

فقالوا أولا : ان العرب أخذوا ألفاظا من الاعاجم في أطوار تنقيح العربية واستعملها الفصحاء وورد منها كثير في القرآن والأحاديث فما لنا لا ننشئ مذهبا خامسا في التنقيح وفاتهم أن ما أخذه العرب قليل جداً بالنسبة الى ما نبذوه ونادر بالاضافة الى مادة لغتهم الاصلية والقليل النادر لا يقاس عليه فاذا فتحنا اليوم باب القياس في مادة اللغة نفتحه غداً بالاولى في هيئتها أي في الصرف والنحو فنقيس على ما ورد شذوذاً عن العرب اذ ليست المادة بأقل خطورة من الهيئة ولا الجوهر بأدنى احتراما من العرض فننصب خبر المبتدا وخبر انّ ونشتق من الجوامد كلها ونميل الالف حيثما وجدت ونستخرج من كل فعل ثلاثي مزيدات ونستعمل الزيادة لكل المعاني وبالجملة نجعل عالي اللغة العربية سافلها ونحدث فيها الاحداث الهائلة فتتبلبل فيها الالسنة وتفقد بعد قليل من الزمن مع أن « أصحاب اللغات الحية » الذين يريدون أن يتشبهوا بهم لم يرضوا أن يتركوا عاداتهم من الكلام والكتابة ولو كانت خطأ فلا يزالون يقولون في ٧٥ ستون وخمسة عشر وفي ٩٨ أربع عشرينات وثمانية عشر ولا يزالون

يكتبون جملة حروف في الكلمة لا ينطق بشيء منها ويفوهون بحروف لا يكتب منها شيء

وقالوا ثانيا: انه يجب ان يكون لكل مدلول دال خاص به لا يدل على غيره أبدا وتكون دلالته بنفسه لا بعلاقة أخرى وان تسمية المحدثات بلفظ عربي مهما كانت علاقته يوقع في الاشتراك ويزيدنا آلاما الى آلامنا: وغرضهم بذلك منع الاشتراك اللفظي بالمرة أو عدم زيادته وفاتهم ان الاشتراك اللفظي واقع لا محالة في جميع اللغات لان ألفاظ كل لغة محصورة والمعاني غير محصورة فلو وزعت الالفاظ على المعاني وجب المصير الى الاشتراك حتما وانه لا ضرر من استعماله مع القرينة ففي الهندسة مثلا تستعمل الزاوية والعمود والسطح والهرم والكرة والضلع ولا يخطر في البال شيء من معانيها القديمة، وفي الطبيعة والكيميا تستعمل العدسة والملح والبلورات ولا تحس بأصل معناها، وفي القوانين تستعمل وضع اليد وسحب الورقة وحبس العين والقذف والضبط والربط ولا يجيء في الخاطر معناه الاصلي والذي يسمع جملة «سيارة الامير سبقت القطار» لا يتوهم القافلة ولا الجمال فأين هي الآلام التي تخشون من زيادتها؟ ومن منكم يمكنه ان يتكلم كلاما خاليا من المشترك والمجاز؟ أنا أراهنكم على كتابة عشرة أسطر بأي لغة شئتم في وصف حادثة من الحوادث ذات البال فمن قدر على اخلائها من المجاز والمشترك فله مني عشرة دنانير وأمهلكم شهرا. والحقيقة ان هذه الآلام آلام وهمية توجد عند ما يريد أن يتألم منها

وقالوا ثالثا: ان دلالة الكلم الاعجمية أصرح لانها تدل على صنف مخصوص بخلاف الكلم العربية فانها في الغالب تكون عامة: وفاتهم ان

الاصطلاح يجعل العام خاصا والمطلق مقيدا فالنسافة والبارجة والدارعة والمنطاد لاعموم فيها بعد الاصطلاح عليها وغلبة الاسمية على الوصفية معروفة في اللغات قديما وحديثا فيقولون في السيف أبيض ومرهف وهندي ويماني وفي الرمح أسمر ولدن وسمهري ورديني وكلها أوصاف غلبت عليها الاسمية

وقالوا رابعا : ان التعريب أسهل من انتقاء اللفظ العربي واستعمال الاعجمي أخف على السمع فاذا قلت للبدال « أعطني قدحا من الجمة » اشمأز منك وسخر الساموون بخلاف « البيرا » . وفاتهم أن هذه الصعوبة تزول بعد الاهتداء الى الكلمة العربية والاصطلاح عليها والالحاح في استعمالها لفظا وكتابة على أن هذه الصعوبة انما تكون على الاشخاص المكلفين باستخراج الكلم بخلاف الذين يتعلمونها جديدا فانهم يجدونها بدون عناء كالذي يلبس الثوب لايحس بعناء حائكه وخائطه وقارىء الصحيفة لايحس بعناء محررها وجامع حروفها وطابعها . ولا بد من قوم يعانون الاعمال وآخرون يتفعون بها ونحن لانكلف أفراد الامة بالاشتغال معنا في انتقاء الالفاظ بل يكفي ان يتعب منا فريق في هذا الامر مقابل تعب الآخرين في أعمال اخرى على قاعدة التبادل المدني أما استهزاء العامة فلا يعوقنا عن العمل لانا لا نعمل لهم بل للخاصة والنشء الجديد الذين يتعلمون في المدارس ، وخالي الذهن يحفظ مايلقى اليه سواء كان اللفظ الذي يحفظه عربيا أو أعجميا ، واني أذكركم أننا كنا نستعمل كلمة قومسيون وقوميتيه وجرنال وغازيته وأفوكاتو وكوليرا وواپور وقنصل جنرال ولما ابتدأ الصحافيون يغيرونها بلجنة وصحيفة ومحام

ووباء وقطار ومعتمد كنا نتقززها فلما ألفوا في استعمالها زال التقزز شيئا فشيئا حتى عفنا الكلمات الاولى فجازاهم الله عن العربية خيرا . فلم لا يعمل المحدثون من الصحافيين مثل ماعمل الاقدمون ؟ ولماذا لا يحذو مترجو اليوم حذو مترجمي أمس ؟ ولم لا نساعد هؤلاء وهؤلاء على اداء ذلك الواجب ؟

وقالوا خامسا : ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه: فنقول لهم وليس لنا أن ننبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم أن لا يتركه مالم تقم الادلة على أصلحية الجديد وقد جربنا القديم مئات من السنين فقام بالكفاية ولم نر للان منفعة في الالفاظ الجديدة بل الضرر محقق لانا لو فتحنا الباب لدخول الجديد لاستعجم على الخالفين فيهم كل المؤلفات منذ الف سنة الى الآن وانقطع الاتصال بين السابق واللاحق وضاع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين

وبعد فاني لم أفهم للآن وجها للتشبث بحب الاعجمي فاما أن نكون مصابين بمرض الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب واما أن نكون لاستضعافنا مقلدين الغالب كما قال ابن خلدون ، واما ان يكون في طباعنا الخلاد الى الراحة والسكون فلا نريد أن نعاني أعمالا جديدة لم تعودها فتخدعنا هذه الطباع الى تحسين مانحن عليه ونقول بالتعريب لاننا يمكننا أن نعرب كل يوم الف كلمة ولا نجد في الشهر عشرين كلمة عربية فيقرر كل منا أن ماوصل اليه هو منتهي الكمال وأن مايزيد عن ذلك يحسب من التقعر والتفيهق ولا يريد ان يعترف بكمال بعد الحد الذي وقف عنده فيسجل

على نقصه النقص ، ان لم يكن هذا ولا ذاك فما سبب هذا التشبث يا ترى؟ لقد وعيت كل ما سبق من الادلة فلم أجد فيها برهانا فلعل جمود قريحتي ضرب بيني وبين الحقيقة حجابا مستورا

وقد نشأ من التساهل في حياطة اللسان العربي أن تطرق الفساد الى مادته وهيئته وتولد عنه لسان آخر لا هو بالعربي ولا هو بالاعجمي وسماه الناس باللغة العامية أو الدارجة وهو المستعمل لهذا العهد في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب والمغرب والسودان لا يتكلمون بغيره وان كانوا لا يزالون يكتبون بالعربية الفصحى او ما يقرب منها

ونرى الطفل يتعلم العامية في أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى في أقل من عشر والسبب في ذلك ظاهر وهو انه في أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ في ذهنه رسوخ الفرنسية في أذهان أطفال الفرنسيس والانكليزية في أذهان أطفال الانكليز وليس الحال كذلك في ابان تعلمه لغة الكتابة ولو فرضنا صبيا نشأ في بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها في الكتابة فقط لانعكس معه الحال وتعلم العامية في أقل من عشر ، فليس من طبيعة اللسان العربي الصحيح شيء من الصعوبة وانما هي طريقة التلقين وبيئة التعليم

وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يغني عنها خمس لو اقتصر المعلم على احداهما ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره فاذا تحققت الآمال وصار التعليم اجباريا فكم تخسر الامة كل سنة من أعمار افرادها؟ فاذا أخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو

٤٧٠٠٠٠ وطرحنا منه معدل وفيات الاطفال الى سن العشرة (ونفرض أنه النصف) ٢٣٥٠٠٠ يكون عدد الباقين ٢٣٥٠٠٠ نضربه في عشرة أعوام وهي مقدار مايخسره كل واحد فتكون النتيجة ان الامة تخسر في كل عام عمل شخص واحد في ٢٣٥٠٠٠ سنة وبعبارة أخرى يفوتها مع زراعة ٢٧٥٠٠٠ فدان على فرض ان الفدان يزرعه اثنان وهي خسارة لا يحسن السكوت عليها ، فياضيعة الاعمار تمشي سهلا ،

وقد استنكر الصبر على هذه الخسارة جماعة من الاقتصاديين فاتفقوا على وجوب الاقتصار على تعلم احدى اللغتين واختلفوا في تعيينها فقال فريق منهم يقتصر على العامية ومنهم المهندس الشهير ويلكوكس والقاضي الكبير ويلمور . وقال الفريق الآخر ومنهم العالم الشهير والمربي الكبير يعقوب أرتين (باشا) بالاقتصار على الفصحى

واورد على الاول (١) ان لكل قطر عامية مخصوصة بل لكل مديرية لهجة معينة فاذا رجحنا لغة اقليم محكما منا نكون قد ألزمنا سكان الاقاليم الاخرى بتعليم لغة ذلك الاقليم وعناؤهم في ذلك لا ينقص عن عناء تعلم العربية الفصحى بل الفصحى أسهل لان كل شيء فيها قد ضبط ونقح ووضعت له كتب متعددة (٢) وان العامية في البلد الواحد تتبدل بتبدل العصور فلكل زمان ألفاظ تدخل مع أصحاب القوة ولذلك نرى في لغة مصر مفردات من الرومية والكردية والتركية والشركسية والفرنسية والانكليزية (٣) وان التزام العامية يحدث حجابا كثيفا دون الاستنباط من القرآن والحديث والمأثور من كلام السلف فتذهب أعمال الاولين هباء وتقع الخسارة على المسلمين وغيرهم ممن يستخرجون كنوز العلوم من

بطون الكتب العربية القديمة ولولا كتب العرب ما أشرق على أوربا ذلك النور الساطع وبالجملة تنقطع الصلة بين الازمنة والامكنة العربية ويحرم ابن هذا الزمان من ثمار أفكار السابقين وقاطن هذا المكان من تبادل آراء المعاصرين من أبناء اللغة الواحدة فلا جرم كان من المتعين نبذ الرأي الويلكسي والاخذ بالمذهب الارتيني

وخلاصة هذا المذهب أن تترك العامة يتكلمون بما يريدون وتدرب التلاميذ في المدارس على التكلم بالفصحى ويجب اليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم حتى ترسخ فيهم ملكتها وتملك ألسنتهم دربتها ويكون أخذهم بالتمرين تدريجيا يطبقون على ما عرفوه ويكملون محاورتهم بالعامية فيما لم يعرفوه وكلما زادت درجتهم في التعليم زادت قوتهم في التطبيق الى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها

فاذا ضم الى ذلك مطالعة الصحف والمجلات العربية وسماع الخطب العلمية في النوادي العربية والتردد على مجالس الوعظ ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات وتعليم الفتيات واحتذاء أساليب المنشئين وطبع كتب المبرزين فان اللغة العامية تنقرض في أقل من عشرين عاما وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربي الى عصر مجده وأيام سعده

ولقد هم ذلك المربي الكبير منذ عشرين سنة بالزام تلاميذ المدارس بالتكلم بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم وأخذ يمهد لهذا الامر عدته ويعتاده وسألني رأيي في ذلك وكنت معلما في مدرسة الحقوق فقلت له ان الامر ميسور والخطب سهل فطلب الي تجربة ذلك قبل أن يصدر الاوامر فقلت نعم وكرامة ولم يمض شهر حتى دعوته لشهود التجربة مع

من شاء من المفتشين فأسفرت التجربة عن نجاح باهر وارتقاء ظاهر فهم على امضاء عزيمته لولا احتجاج فريق من المعلمين، بل نفر من العاجزين، بان التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة واتمام القواعد ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن، في خبر كاد ان لم تكن في خبر كان، والذي يسمع كلام الباحثين الاصليين والمتصرين لهما يخال ان بين الفريقين حربا عوانا وخلافا ما بعده اتفاق . ومنشأ هذا الافتراق الذي حمي وطيسه واحتدم أوراه ان أدلة الفريق الاول تنتج أكثر من المدعى ويجر التسليم بها الى اذهاب اللغة العربية والاتيان بخلق جديد ولولا ذلك لكان الخلاف نظريا لا يترتب عليه أثر ويتضح ذلك اذا حددنا موضع النزاع وحصرناه في الدائرة التي يجب حصره فيها، واحسن طريق للتحديد سرد مواطن الوفاق حتى تحاماها اذا التقى الجمعان واليكم البيان

(١) نقسم أولا اللغة العربية الى لغتين لغة عامية ولغة فصحى فالعامية لا يمكن أن تكون محل نزاع لان الباحث الاول يقول بصقل اللفظ الاعجمي ووضعه في القوالب العربية والثاني يقول بعدم الخروج عما ورد فمحل النزاع اذاً اللغة الفصحى

(٢) ثم نقسم اللغة الفصحى الى أجزائها حرف وفعل واسم فالحرف لا يمكن أن يكون محل النزاع لان ما وجد منه كاف واف بحاجة اللغة فلا ضرورة لزيادة نحو «بيس» و«نو» و«آند» لوجود نعم ولا وحرف العطف والفعل كذلك غير محتاج للمزيد فلا باعث لزيادة نحو «جون» و«كم» لوجود ما يماثلها في العربية وقد وقع في كلام الباحث الاول [1] ما يفهم منه

(١) هو الشيخ محمد الخضري

رغبته في زيادة أفعال تشتق من الاسماء الاعجمية كأترم وتمبل وأمبس ولعل ذلك فرط منه أثناء احتدام الجدال والا فما وجه تفضيل الاعجمي على العربي ولم يقل أحد بجواز أبغل وأحمر وأفرس والبغل والحمار والفرس أعرق في العربية من الترام اللهم الا أن يكون وجه التفضيل شدة السرعة وعندنا قاعدة مذهبية نبني عليها وهي أنه لا يصار الى التعريب الا اذا ألجأت الحاجة اليه ولا حاجة الى اترم كما لا حاجة الى أبغل لامكان التعبير بركب الترام لو سلمنا بقبول كلمة ترام فحل النزاع اذا الاسم

(٣) ثم نقسم الاسم الى ما ينوب عن الفعل كشتان ووي وصه والى مالا ينوب عن الفعل والاول كالفعل لا حاجة الى الزيادة فيه فحل النزاع اذا الثاني

(٤) ثم نقسم مالا ينوب عن الفعل الى مشتق وجامد فالمشتقات في العربية كافية وهي أصرح من نظائرها في اللغات الاخرى فالنزاع في الجامد

(٥) ثم نقسم الجامد الى اسم معنى واسم ذات فاسماء المعاني كثيرة جداً في العربية حتى عدها الباحث الاول ثروة واسعة فالنزاع في اسم الذات

(٦) ثم نقسم اسم الذات الى ما وضع لمعين بلا واسطة وهو العلم والى ما وضع لمعين بواسطة ملازمة وهو الضمير واسم الاشارة والاسم الموصول والى ما وضع لغير معين وهو اسم الجنس

فالعلم يشمل أسامي الاناسي والبلاد والجبال والانهار والبحار والامم والاقاليم وماله شأن خاص من غيرها ، والاتفاق على انها لا تخص لغة معينة الا باعتبار معناها الاصلي قبل العلمية وانها تبقى على ما وضعه لها واضعها الا لضرورة والضرورة اما أن تكون بوجود حروف أعجمية

لا نظير لها في العربية كالحرف الذي بين الباء والفاء والحرف الذي بين الفاء والواو والحرف الذي بين الجيم والقاف والكاف والغين وبعبارة أخرى كجيم القاهرة أوقاف الصعيد وهي قاف تميم والحرف الذي بين الجيم العربية والياء وبعبارة أخرى كجيم المغاربة والحرف الالماني الذي بين الخاء والشين فيبدل الحرف الاعجمي بحرف يقاربه

واما أن تكون بوجود حركات أعجمية لا نظير لها في العربية كالحركة التي بين الفتحة والضمة كما تقول أهل القاهرة خوخ والحركة التي بين الضمة والكسرة عند الفرنسيس فتبدل بحركة عربية تقاربها أما الحركة التي بين الفتحة والكسرة فلها نظير في العربية في لغة نجد وقيس وأسد كما تسمع من القراء فتبقى كما هي أو تبدل بفتحة خالصة والمد بعدها بألف خالصة

واما باشتمال العلم على ما لا تجيزه أصول العربية كالابتداء بساكن وكالانتهاء بواو ساكنة قبلها ضمة وكالانتهاء بواو أو ياء بعد حرف مد فيحرك الساكن أو يتوصل اليه بهمزة وصل ويحرك احد الساكنين وتقلب الواو الساكنة ياء والضمة قبلها كسرة أو تحذف وتقلب الواو أو الياء المتطرفة بعد مدة همزة وهذا التغيير هو الذي يسمى صقلا أو وضعا في القوالب العربية فالعلم موضع اتفاق بين الباحثين أيضا

والضمائر واسماء الاشارات والاسماء الموصولة كافية بل فيها زيادة عن نظائرها في اللغات الاخرى فلا حاجة للزيادة فيها وانما النزاع في اسم الجنس كما صرح الباحث الاول مرارا

(٧) ثم نقسم اسم الجنس الى ما استعملت له العرب لفظا سواء

وضعته له من عندها أو عربته من لغة غيرها والى ما لم تستعمل له لفظا والاول يقبل ولا ينظر الى أصل اللفظ قبل التعريب لان التعريب جعله في حكم العربي فليس موضع نزاع والنزاع فيما لم تستعمل له العرب لفظا

(٨) ثم نقسم ما لم تستعمل له العرب لفظا الى ما اصطلح المولدون على اطلاق لفظ عربي عليه بأي مناسبة كانت كنسافة وغواصة ودارعة وقطار ولا خلاف بين الباحثين في قبوله ، والى ما لم يصطلحوا على اطلاق لفظ عليه للآن ولا خلاف بين الباحثين في انه يجب البحث والتنقيب في كتب اللغة عن لفظ عربي يمكن اطلاقه عليه بأي مناسبة من المناسبات الجائزة في اللغة العربية ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ نسافة وغواصة

ولم يقل أحد منهما بتعطيل حركات الخطابة والكتابة ودواوين الانشاء وصحف الاخبار في مدة البحث والتنقيب بل لا بد من ملء الفراغ بلفظ أعجمي واستعماله موقتا للضرورة كما يفعل الطالب الذي ينتقل بالتعليم تدريجا من لغة العامة الى اللغة الفصحى

فاذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها وهو ما لا يكون الا نادرا تنقل الكلمة وتستعمل وحينئذ يراها الباحث الاول بالمنظار الذي يرى به المعربات التي صفقتها العرب ويقول قد احتطت وما فرطت فرحبا بالدخيل العتيد ، وبعدا للاصيل الشريد ، وما لي أشغل آمالي بنشد ضالة ان جاءت فلا كرامة ، وان ذهبت فلا شيمتها غمامة ، ويراها الباحث الثاني بمنظار آخر غير ما يرى به المعربات فيحسبها كالرقعة

في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة أحكام ، وحبذا لو صحت الاحلام ، ووجدت طلبتي في يوم من الايام ،

هذا هو الخلاف الطويل العريض ضيق البحث حلقاته ويدأ حتى تضاءل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المجتلبة واستقبالها اما بالترحيب ، واما بالتقطيب ، وهو خلاف غريب ،

حفني ناصف

باب المناظرة والمراسلة

﴿ السنن والاحاديث النبوية ﴾

جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح بن علي اليافعي أحد العلماء الفيوريين في حيدرابادالدكن يرد فيها على الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فيما كتبه في النسخ وكون الاحاديث ليست من أصول الدين ولطولها ننشرها بالتدريج مبتدئين بمقدمتها التمهيدية وهي :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق ، وجعل له لسان الصدق ، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ، ومتبعيه وأنصاره واحزابه ،

أما بعد فاني قد وقفت على رسائل لحضرة العالم الباحث الدكتور محمد توفيق افندي صدقي كان يرمي فيها أولا الى أن الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن مجرداً عن بيان الرسول (ص) وتعاليمه غير معتبر لما زاده الله على ما في القرآن من أحكامه ولازم قوله بل صراحته دالة على محو صورة الاسلام الموجودة وجواز تشكيله ا.